السيد أمير على

أما « السيد أمير على » فمصلح علىّ من جنس « السيد أحمد » ، بل ربما كان أكثرَ منه تقديراً للحياة الواقعية ومواجهتها .

لقد قابل « السيد أحمد » فى إنجلترا ، ثم قابله فى الهند ، وطالما تجادلا لاختلاف وِجهة نظرهما فى إصلاح مسلمى الهند ، فالسيد أحمد يرى أن الإصلاح وسيلته التربية والتعليم فقط من غير انغماس فى أية ناحية من النواحى السياسية ؛ والسيد أمير على يرى أن التربية وسيلة صحيحة ، ولكن لابد بجانبها من علاج الشؤون السياسية للمسلمين فى الهند ، ووضع خطة لها إزاء خطة الهندوكيين ، وإلا ضاع المسلمون بجانب الهندوكيين ؛ لابد من وضع غرض سياسى وتنظيم خطة وتحديد مطالب ورسم طرق السير . والسيد أحمد يأبى ذلك ويقول لا شىء إلا التربية . ولهذا سار كلٌّ منهما على مبدئه ، فالسيد أمير على يؤسس سنة ١٨٧٨ « الجمعية الوطنية الإسلامية » للدفاع عن حقوق المسلمين وتحديد الوضع السياسى لهم ، ويدعو « السيد أحمد » للعمل معه فيأبَى .

وأخيراً جدًّا وفى آخر حياة « السيد أحمد » يؤمن بصحة نظرية السيد أمير على ، بفضل حوادث الهندوكيين ، فيؤسس « جمعية الدفاع الإسلامية » .

يمتاز « السيد أمير على » بثقافته الغربية والشرقية الواسعة ، فقد تعلم العربية والفارسية ، ثم اتصل فى شبابه بأدباء الإنجليز فى الهند ، فدرس الآداب الإنجليزية دراسة عميقة . لقد قرأ بإمعان أكثر روايات شكسبير ، والفردوس المفقود لملتن ، وحفظ شيلى ، وقرأ لكيتس ، وبيرون ، ومور ، وكل روايات ولتر سكوت ، وكتاب جيبون فى أسباب سقوط الدولة الرومانية ، إلى غير ذلك .

هذا إلى دراسته القانونية وحصوله على درجة جامعية فيها من الهنـد قبل سفره إلى إنجلترا ، ثم ذهابه إلى إنجلترا عضو بعثة ، وثقافته الواسعة هناك ، ودراسته الأدبية والتاريخية لتغذية نفسـه ؛ ثم كان له من بروز شخصيته ، ونبالة نفسه ، واعتداده بأنه شريف النسب تنتمى أسرته إلى النبىّ العربىّ ، ما جعـله يظهر فى الأوساط الإنجليزية ، ويؤكد صلات الصداقة بينه وبينهم ، ويتعرف الحيـاة الاجتماعية الإنجليزية أدقّ معرفة .

كل هذا مكّن له فى شقّ طريقه إلى الإصلاح .

وكان حسن استعداده الأدبى ، ودراسته الآداب الإنجليزية فى سعة وعمق ، ممـا مكن له فى السيطرة على أسلوب إنجليزى أدبىّ ممتاز ، استخدمه فى نشر كتبه الإسلامية المملوءة حماسة وغيرةً على الإسلام .

فنى أواخر سِنِى دراسته فى إنجلترا أصدر كتاباً عن « محمد وتعاليمه » كان له صدى بعيد فى الأوساط الأوربية والهندية . وقد قال عنه المستشرق أسبورن Osborn : « إن هذا الكتاب يستحق الإعجاب حقًّا ؛ وقد كُتب بأسلوب يدل على مِلْكِ كاتبه لناصية اللغة الإنجليزية ، أسلوب قل من يستطيع أن يجاريه من الإنجليز المثقفين ، أسلوب خلا من العيوب التى وقع فيهـا مثقّفو الهنـود . . . ويجب أن يهنأ مسلمو الهنـد بأن يكون منهم من بلغ هـذه الدرجة ، ومن المستحيل على من فاتحةُ أعماله هذا الكتاب ألا يكون له فى مستقبله أثر فعـال عميق فى قومه . أما موضوع الكتاب فإننا نخالفه فى كثير من مسائله . وسنعرض وجهة نظرنا ووجهة خلافنا فيما بعد » .

واستعمل قلمه البليغ هـذا فى كتابيه الكبيرين « مختصر تاريخ العرب » و « روح الإسلام » ، فنى الأول لخص تاريخ المسلمين ، وعُنِى بوصف حالتهم الاجتماعية فى أسلوب سهل جذاب ؛ وفى الثانى عُنى بوصف الدين الإسلامى ،

السيد أمير على فى ثياب الجامعة

وأبان أن تعاليمه تدعو إلى التطور والرقى المستمر ، ومقدمته من أبدع ما كتب عن الإسلام ، وقد أفرغ فيها — كما قال — قلبه .

ثم كتبه المختصرة فى الدعوة إلى الإسلام .

ونشر هذه الكتب بالإنجليزية البليغة كان له أثر كبير لم يُسْبَق إليه ، وهو تعريف الأوربيين بالإسلام ومحاسنه من مسلم متحمس ، إذ لم يكونوا يسمعون عن الإسلام إلا من مستشرقين .

ولما عاد إلى الهند خدم القضاء بمنصبه وتأليفه فى القانون الإسلامى ، وخاصة فى الأحوال الشخصية ، مستعملا فيها مرونته العقلية ، متأثراً بمدرسته من أن له ولأمثاله الحق فى الاجتهاد فى الأحكام .

ثم قاد الحركة السياسية الإسلامية فى الهند ، ودافع عنها ، ولقى فى ذلك عناء شديداً ، وكان فى كثير من الأحيان يُضْطَهَدُ من المحافظين الإنجليز ، وإن كان يشجع من أحرارهم ، ويُكره من الهندوكيين لاصطدامه معهم فى إصلاح المسلمين ، ويخاصَم من كثير من المسلمين أنفسهم لأنه متزوج إنجليزية ، ويتبع النَمَطَ الإنجليزى فى معيشته الخاصة .

ومع هذا سار فى طريقه فى الإصلاح والعمل ، يؤلف الجمعيات المختلفة لذلك ، ويقول فى بعضها : « إن غرضه ترقية الشعور الطيب بين الهنود على اختلاف طبقاتهم وعقائدهم ، وفى الوقت عينه حماية مصالح المسلمين ، وتبصيرهم السياسى بشؤونهم » .

هذه هى الدعوة التى كان يدعو إليها دائما ، يُسالم الهندوكيين والإنجليز ما سالموه وما حفظوا حقوق المسلمين ؛ فإذا تعدى أحد عليهم دافع فى شدة وإخلاص ، فهو يقول فى إحدى خطبه : « إن المسلمين فى الهند لهم حقوق سياسية واضحة أمام الحكومة وأمام الهندوكيين ، فما لم تُجَبْ هذه المطالب أخشى

أن تنقلب مطالبهم إلى عصبية حادّة . إن مطالبهم حقة ، وهم لا يطلبون غير ما فيه العدالة ، إنهم يطالبون بتمثيلهم السياسى تمثيلا يتفق وعددَهم وأهميتَهم وتاريخَهم ، تمثيلا عادلا . إن المسلمين يأبَوْنَ أن يمتاز عليهم الهندوكيون فى أى حق من الحقوق السياسية ، فإذا سُوِّىَ بين الجميع فالمسلمون يرحبون بالإصلاح »

واستعمل نفوذه وقلمه ولسانه فى إنهاض المسلمين لإدراكهم حقوقهم والمطالبة بها ، سواء منهم من كان فى الهند ، ومن كان فى إنجلترا . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى منازلته من أراد انتقاص حق المسلمين ، وكتاباته الكثيرة القوية لساسة الإنجليز فى الهند ، وكبار ساستهم فى إنجلترا ، وردُّه على الجرائد الإنجليزية كالتيمس والجازيت وغيرها . واستمر فى ذلك فى صراحة وجرأة حتى أبلغ يوماً على لسان صديق له « أن حكومة الهند فقدت ثقتها به » .

ونَشِطَت سياسته أيضاً فى مناصرة الدولة العثمانية بعد خروجها من الحرب الماضية مهزومة ، فطالب بالإبقاء على كيانها ، وحرّك الرأى العام المسلم فى الهند للعطف عليها والتأييد لها ، وكتب فى ذلك وخطب ؛ وله موقف لاذع فى جمعية من الجمعيات ، إذ اقترح خطيب أن تكون الآستانة مدينة حرة ، وتكون مركزاً لعصبة الأمم ؛ فرد عليه فى بديهة حاضرة بقوله : إن فلسطين أولى بذلك ، لأنها « مدينة السلام فى الأرض » والدعوة إلى الخير العام للناس ، منذ نحو ألفى عام .

وإلى جانب حياته العلمية والسياسية النشيطة كان نشاطه فى إصلاح الحياة الاجتماعية لمسلمى الهند ، وأهم ما التفت إليه من الإصلاح دعوته لإصلاح الأوقاف ، من مطالبته بالاستيلاء عليها من الحكومة ، وإصلاح وجوه الصَّرف فيها وتنظيمها ، وقد لاقى فى ذلك عناء شديداً ؛ ثم دعوتُه إلى إصلاح المرأة وتعليمها ، وقد رأس المؤتمر الإسلامى الذى أسسه السيد أحمد خان فى بعض السنين

بعد وفاة السيد أحمد ، وكان مما دعا إليه فيه هاتان الدعوتان : قال فى مؤتمر سنة ١٩٠٠ : « إنّ بالأوقاف وخيراتها انتشرت العلوم ، وتقدمت المعارف ، وأدت وظيفة نافعة فى جميع الأقطار الإسلامية ، وكان لها نفع عظيم فى البلاد الهندية ، ولكن تغيرت الأحوال وخرجت أوقاف كثيرة من يد المسلمين إلى أيدى الغير ، وتلاعبت بها الأيدى ... ولهذا أدعو المسلمين إلى السعى فى هذا الموضوع ، طالباً من الحكومة أن تُعنَىَ بمسألة الأوقاف و إحاطتها بما يحفظها ، فهى فخر المسلمين وحصنُهم الحصين تُجاهَ الفقر والأيام العسيرة ... إلخ » .

وقال عن المرأة : « لقد أتى على المسلمين زمن كان النساء فيه يلقّبن بأمهات الرجال » ، فهل يمكننا الآن أن ننعتهن بهذه الصفة ؟ كلا ، إنهن آلة فى أيدى الرجال يوجهونهن كيف شاءوا — وإذا كنا نريد أن نرتفع فى سُلّم المدنية والارتقاء وأردنا أن يحترمنا الناس ، فلا بد لنا من تربية بناتنا حتى يصلن إلى أن يكنّ « أمهات رجال » — إنى أعتقد أن تربية البنات يجب أن تسير جنباً إلى جنب مع تربية البنين ، لأننا إذا أهملنا النصف المكون لحياتنا الاجتماعية ساءت النتيجة ؛ إذ ينفِر الجزء المتعلم من الجزء الجاهل ، و يبعُد عن مصاحبته ومعاشرته ما استطاع ، ويحاول أن يسير فى تيّار لا يُرْضِى الشرف ، أو ينحطّ بفكره ليعاشر ذلك الشريكَ المنحطّ فى حياته .

ولذلك أرى من الضرورى أن يَسعَى مسلمو الهند فى تعليم بناتهم من هذا الوقت ، وأن يضعوا أمام أعينهم النّموذَج الذى يسيرون عليه إلى الأمام » . الخ الخ .

ومن أنبل أعماله الأخيرة ما كان منه أيام الحرب بين إيطاليا وتركيا والعرب فى طَرابُلُسَ ، فقد علم أن جمعية الصليب الأحمر تُعنَىَ أكثر ما تُعنَى بالمجروحين من المسيحيين ، وليس من يقوم بجرحى المسلمين ، فسعى لتأليف جمعية تجمع المال من الخيّرين وتنظم وَحَدات علاجية لجرحى العرب والترك ، واستمر يكافح فى هذا

العمل سنين ، وعندما سأله المُشْرِف على فِرَق العلاج : هل وظيفته فقط أن يُعنَى بجَرْحَى المسلمين ؟ قال له : « إن وظيفتك الأولى أن تُعنَى بجرحى العرب والترك ، ولكن هـــذا لا يمنعك أن تمدّ يد المعونة لجرحى النصارى واليهود فى ساعات الضيق والحرج » .

وهكذا كان عمله وعمل جمعيته فى مساعدة الجرحى والبائسين فى حرب البلقان وفى الحرب العظمى الماضية .

* * *

لقد كان أهم ما يمتاز به السيد أمير على « الإخلاص للعقيدة » ، عقيدته فى دينه ، وعقيدته فى قومه ، وعقيدته فى وطنه . ورأى أن مواهبه فى لسانه وفى قلمه ، فصَقَلهما صَقْلا بلغ بهما الغاية ، فهو فى لسانه خطيب بارع ، وفى قلمه بليغ ساحر ؛ فلما أن بلغ بهما هذا المبلغ وضعهما فى خدمة عقيدته ، يكتب عن الإسلام وعن محمد فتصل كتابته إلى كثير من الأوربيين الذين لم يسمعوا عن الإسلام ومحمد إلا التافهَ من القول ، وتصل إلى مواطنيه فيَرَوْنَ معلومات مألوفة قد عُرِضَتْ عَرْضاً جديداً حتى كأنها جديدة ، ويوم وصل إليهم كتابه عن « محمد » وقفوا الدراسة فى المدارس يوماً احتفالا بهذا الكتاب واعترافاً بحسن أثره .

ثم يستعمل لسانه وقلمه فى خدمة قومه من المسلمين فيحركهم ويجمع شمْلَهم ويدفعهم لمطالبتهم بحقوقهم ، فيفقِد بذلك كثيراً من المال كان يصح أن ينهال عليه ، ومن ألقاب الشرف كان يمكن أن ينالها بمركزه ومواهبه وجاهه ، ولكنه كان راضياً بما فى يده مع راحة ضميره ، وكارهاً طعمَ الغنى والألقاب مع عصيان الضمير ، وهو من تأليفه ودفاعه وإصلاحه وثمرة عمله فى غنى وشرف لا يساويهما أىّ غنى أو شرف .

لقد تقدم إلى قبره يوم مات كثير من أصدقائه من الأوربيين والمواطنين

يحملون أكاليل الزهر ، من بينها إكليل من جمعية كان يرعاها شَبَكَتْ به بطاقة كان مكتوباً فيها :

« بمجهود هـذا الراقد كم طَعِمَ جائع ، وكَسِيَ عار ، وصَحَّ مريض ؛ و بفعاله كم اطمأن شارد ، وضمت أمٌّ طفلها إلى صدرها لولاه لهلك ، ووجد الفلاح اليائس الذى خَرَّبت الحربُ أرضه ما أعاد إليـه أمله ، وأسعفه بالمـال يمهد أرضه وَيَبْذُرُ بَذْره و يستعيد بذلك رزقه » .

ولو استطعنا إكمال البطاقة لقلنا : « و بقلمه ولسانه كم حَيِيَتْ نفوس ، وتنبهت عقول ، واهتدى ضال ، وأُصلح فاسد ، واستقام معوَجّ ، واسـتُرِدَّت للمسلمين حقوق ، وتعلمت بنات سُعِدَ بهن أزواج ، وسُعِدت بأبنائهن الأمة »